المدرسة الشرابية

أو

« القصر العباسي » في قلعة بغداد

ناجي معروف

رئيس قسم التاريخ فى كلية الآداب

بجامعة بغـداد

الفصل الاول

براهين فنية تثبت أن « القصر العباسى » مدرسة عباسية ، وليس قصرا ، ولا دارا

لم يعرف على وجه التحقيق ، الغرض الذى شيدت من أجله العمارة المعروفة اليوم بـ « القصر العباسى » فى قلعة وزارة الدفاع ببغداد • وكل ما ثبت للباحثين أن « القصر العباسى » المذكور بناية عباسية ، تدل آثارها الباقية على فخامتها ، وجمالها ، وروعة هندستها ، وزخرفتها • ولم يعرف مَنْ انشـأها ، ولا التاريخ الذى انشئت فيه • لانه لم يتسن للعلمـاء ، والباحثين الوقوف على التفاصيل الضرورية التى تمكنهم من معرفة حقيقتها ، وماهيتها لندور المراجع التاريخية عن بغداد فى العصور المتأخرة •

وسنحاول فى هذا البحث ان نثبت بصورة قطعية ، انها كانت احدى مدارس بغداد فى أواخر الدولة العباسية • وأنها ليست قصراً من قصورها ، ولا داراً من دورها • أما اسـمها واسم بانيهـا فاننـا نسترجح أن تكون « المدرسة الشرابية » التى انشأها « اقبـال الشرابى » احـد كبار رجال المستنصر بالله العباسى • لـكننا سوف لا نبت فى هذا الرأى ، ولا نقطع به • وسنترك للباحثين البحث فيه ، حين يتوافر عندهم ما يساعدهم على معرفة ذلك •

ان هذه البناية تقع فى الزاوية الجنوبية الشرقية من قلعـة وزارة

الدفاع الحالية ، يفصل بينها وبين بناية وزارة الدفاع الحديثة جامع القلعة الذى تشير وقفيته المؤرخة فى سنة ١٠٤٨هـ (١٦٤٨م) الى انه كان يقع فى محلة السكةخانة[١] والذى يرجح انه جامع سوق السلطان الذى بناه الناصر لدين الله العباسى كما سنذكره فى حينه .

وقد مرت هذه العمارة بأدوار مختلفة منذ أواخر أيام العباسيين حتى اليوم . ومما لاشك فيه أنها اتخذت معهدا علميا للتدريس ، ودار علم للكتب ، ردحا من الزمن ، وتقلبت بها الاحوال فى أيام المغول ، والتركمان ، ومن جاء بعدهم . ثم اتخذت فى العهد العثمانى لاغراض عسكرية ، وبذلك نسي الناس ما كانت عليه هذه البناية ، لاسيما وان الدخول الى « القلعة » المذكورة لم يكن سهلاً يومئذ باعتبارها مركزا عسكريا . وقد شيد العثمانيون بلصقها برجا كبيرا ولعل ذلك قد تم بعد شيوع استعمال المدافع ، والآلات النارية[٢] . كما اضيف اليه فى ذلك العهد أيضا مخازن ، وغرف ، وقبب عديدة . وقد أثرت هذه الاضافات على العمارة المذكورة فشوهت معالمها الى حد بعيد . وعندما عزمت مديرية الآثار العامة على دراسة هذا الاثر التاريخى الاسلامى القيم ، عمدت الى هدم جميع الاقسام المستحدثة ، عدا البرج العسكرى نظرا لانه كان مستقلا عن هذه العمارة ، ولم يشوه أو يغير شيئا من معالمها ، ولا تخطيطها أو هندستها . وكان من جملة ما هدمته مديرية الآثار العامة ، قبة كبيرة كانت على المدخل الرئيس لهذه البناية ، مما يلى جهة النهر . وقد هدمتها مع جدرانها التى كانت ترتكز عليها . وكان من نتائج هذا الهدم ظهور هذا المدخل الرئيس مما يلى دجلة ، وبذلك انجلى جانب مهم من ذلك الغموض الذى كان يكتنف هذا الاثر التاريخى الجليل ، حيث ظهر بوضوح كيفية الدخول الى هذه البناية ، والانتقال من « المجاز » أو « المابين » كما سمته

---

(١) راجع كتابنا تاريخ علماء المستنصرية ص : ٥ ـ م .
(٢) بقايا القصر العباسى ص : ٥ .

مديرية الآثار الى القاعات الكبرى ، أو الى الرواق الذى كان يحيط بالصحن ، ثم الوصول الى الايوان ، الذى يعتبر أروع أقسام هذه البناية ، والى بقية أجزائها الاخرى .

وقد عُنيت مديرية الآثار العامة بدراستها ، وترميمها وصيانتها على عهد مديرها السابق أستاذنا العلامة ساطع الحصرى سنة ١٩٣٤م . وقد تمكنت منذ ذلك الوقت ، بما بذلته من جهود مشكورة حتى اليوم ان تعيد أكثر أقسام هذه البناية الى أصلها الذى انشئت عليه أول مرة ، من حيث التخطيط ، والزخرفة . واتخذت منها متحفا للآثار العربية .

ولما لم يهتد حتى اليوم أحد من العلماء المحققين المعنيين بالآثار العربية ، الى معرفة حقيقة هذه البناية معرفة أكيدة ، فقد عزمتُ على دراستها دراسة فنية ، ومقارنتها بالمبانى الاثرية المشابهة لها فى العراق ، للوصول الى نتيجة حاسمة تقرر ماهيتها وحقيقتها .

وسأستعرض الآراء المختلفة ، التى توصل اليها الباحثون قبل أن ابدأ بتفصيل رأيي الذى نشرته مجملاً قبل ١٤ سنة فى مجلة التفيض .

لقد رأت مديرية الآثار القديمة فى نشرتها التى نشرتها عام ١٩٣٥م تحت عنوان « بقايا القصر العباسى فى قلعة بغداد » أنها كانت أحد القصور العباسية[١] . وكان المرحوم يعقوب سركيس يرى انها « دار المسناة » التى بناها الناصر لدين‌الله العباسى . وقد ذكر انه كان « أول من أبان ان اسم هذا البناء هو دار المسناة » فى مقال كتبه قبل ثلاثين سنة فى مجلة لغة العرب[٢] وقد ذهب هذا المذهب زميلنا الدكتور مصطفى جواد ونشر عنها بحوثا ضافية كما سبق للاستاذ المهندس « هنرى فيوليه » الفرنسى الذى استقدمه ناظم باشا والي بغداد سنة ١٩١٠م لتجميل بغداد وتنظيم هندستها ان اشار فى بحثه عن الريازة الاسلامية الى زخارف « القصر العباسى » فظن

---

(١) بقايا القصر العباسى ص : ١ .
(٢) راجع مباحث عراقية ـ القسم الثانى ص ١ .

انها من الجبس وهو الـكلس « Stuc » [1] • وقد اثبتُ له عندما زرته بباريس سنة ١٩٣٨م ان فى « القصر العباسى » وفى المدرستين : المستنصرية والمرجانية زخارف كلها من الآجر ، وهى محفورة بعناية بالغة ، ومنقوشة بنقوش زهرية أو هندسية بديعة • وذكرتُ له انها غير مصبوبة فى قوالب ، بل رسمت على الآجر المطبوخ أو المفخور بالنار ، ثم حفرت بعد ذلك ، وزينت بها جبهات العمائر ، وسقوفها • وقد ذكر هذه البناية استاذنا لويس ماسينيون المستشرق الفرنسى[2] • ونشر الجنرال دى بيليه De Beylié صورتين للايوان صورهما له المسيو فيوليه المذكور • وفى سنة ١٩٤٠ ناقشتُ المرحوم يوسف غنيمة مدير الآثار القديمة يومئذ وبعض موظفى مديرية الآثار مبيناً لهم ان البناية الموصوفة انْ هى الا مدرسة وليست قصراً ولا داراً • واسترجحت آنذاك ان تكون « المدرسة الشرابية » أو « الشرفية » التى اسسها شرف‌الدين اقبال الشرابى فى خلافة المستنصر • وقد مالوا الى الاخذ بهذا الرأى • واشاروا الى ذلك فى دليل[3] « بناية المتحف الاسلامى أو القصر العباسى » • وعندما نشر الدكتور مصطفى جواد بحثه المفصل الذى أكد فيه ان « القصر العباسى » هو دار المسناة[4] كتبتُ على أثر ذلك بحثا مفصلا ، اثبتُ فيه ان « القصر العباسى » مدرسة عباسية ، وليس قصرا عباسيا ، ولا دار المسناة الناصرية • وأيدت هذا الرأى الجديد بالبراهين الفنية ، والادلة التاريخية • وعرضتُه على أستاذنا الدكتور ناجى الاصيل مدير الآثار العام اذ ذاك لنشره فى مجلة سومر ، فرحب بالبحث اشد الترحيب وأوعز بنشره غير أن البحث مع ذلك كله لم ينشر فى المجلة المذكورة • ولذلك آثرتُ نشر خلاصته فى

---

(1) L'architecture Musulmane du XIIIe Siècle en Irak. paris 1913.

(2) Mission en mesopotamie 1907-1908. m. Louis massignon VII. P:84.

(٣) راجع النشرة المذكورة ص : ١ ، المطبوعة سنة ١٩٤٣م •

(٤) مجلة سومر ج : ٢ من السنة الاولى ص : ٦١ ـ ١٠٥ •

مجلة التفيض التى كنت اشرف على تحريرها[1] • وقد ختمتُ ذلك البحث العلمى بقولى : « وبعدُ فهذا بحث موجز قائم على أساس من التاريخ والفن ، توخيت فيه معرفة حقيقة البناية العباسية التى فى القلعة • وقد توصلتُ فيه الى رأي فى هذه البناية المهمة اعرضه فى جملة الآراء التى عرضت حتى الآن للأخذ به ، أو رده ، أو مناقشته حباً فى الوصول الى معرفة حقيقة هذه العمارة » •

ولقد أجريتُ كثيرا من المناقشات مع المعنيين بمثل هـذه الامور ، وبخاصة مع كبار موظفى مديرية الآثار العامة الذين كنت قد زاملتهم رَدَحاً من الزمن فى المديرية المذكورة ، وفى أثناء التنقيبات التى اجريناها فى سامراء ، وواسط بين سنتي ١٩٣٩م و ١٩٤١م • وقـد وجدتهم جميعا مقتنعين برأيي هذا وبوجهة نظري فى ان هذه البناية كانت مدرسة عباسية ، ولم يخامرهم شـك فى ذلك • وقـد اخبرنى السـيد ناصـر النقشبندى مـدير المسكوكات والابحـاث الاسـلامية فى مـديرية الآثار العـامة انه نشر بحثـا فى مجلة « أهـل النفط » بعـد بحثى المذكور آنفـا بأكثـر من عشر سنوات[2] أشـار فيه أيضـا الى أن هـذه البنـاية « مدرسة » كما اشرتُ أنا الى ذلك • وفى سنة ١٩٤٨م نشر الاستاذ يعقوب سركيس كتابه « مباحث عراقية » وكان أول بحث فيه : « القصر العباسى ، دار المسناة » الذى كان منشورا فى جريدة البلاد فى ١١ أيلول سنة ١٩٣٥م • وقد اشار فى الحاشية الى بحثى الذى نشرته فى مجلة التفيض والى وجهة نظرى فى هذه البناية من أنها مدرسة ، وليست قصرا ولا دارا • ثم قال عن نفسه وبحثه عن القصر العباسى : ان الدكتور مصطفى جواد « يعترف بأن هذا الـكشف لى » وقال أيضا « وكان الدكتور قد ايدنى عدة مرار قبل كتابته فى سومر » •

ان التحليلات الفنيـة والتاريخية التى ذكرتُهـا فى مجلة التفيض آنفة الذكر لم تدع مجالا للشك ، فى ان هـذه البنـاية كانت مدرسة

---

(١) راجع العددين ٢٣ و٢٧ من السنة ١٩٤٦م •
(٢) راجع مجلة أهل النفط العدد (٧١) من سنة ١٩٥٧ ص ٣٦ •

عباسية ، ولم ينكر أحد من الناس دعواي هذه . وأود اليوم ان أزيد على ما ذكرته قبلا أمورا عدة كلها تثبت أن هذا « القصر العباسي » مدرسة عباسية وليس قصرا عباسيا كما ظنت مديرية الآثار العامة ، ولا دار المسناة الناصرية كما ذهب الى ذلك المرحوم الاستاذ يعقوب سركيس وأيده الدكتور مصطفى جواد . وسوف لا أكرر ما ذكرته في مجلة التفيض من الملاحظات العديدة على بحث الدكتور مصطفى جواد الذى نشره في مجلة سومر ، والذى بذل فيه جهده وافرغ فيه وسعه ليثبت الدعوى التى ادعاها المرحوم يعقوب سركيس ، وهى أن القصر العباسى هو دار المسناة التى بناها الناصر لدين الله ، لاننى فندت ذلك تفنيداً لا يترك مجالا للشك فى أن هذه البناية ليست قصرا ولا دارا وانما هى مدرسة عباسية[1] .

اننا اذا استطعنا أن ننقض الآراء القائلة بأن هذه البناية كانت « قصرا أو دار المسناة الناصرية » بالادلة الفنية وأخرجناها من عداد القصور والدور ، وجب علينا ان نبحث فى ما يمكن ان تكون . ولاشك عندنا فى انها كانت احدى مدارس بغداد الكبرى . ويتضح ذلك جلياً من اوجه الشبه بينها وبين مدرستين اخريين هما : المستنصرية ، والمرجانية اللتان نملك عنهما معلومات مفصلة ، تساعدنا الى حد بعيد على اثبات ما ذهبنا اليه ، باعتبار ان المرجانية ، بنيت على غرار النظامية ، وان المستنصرية بنيت لتنافس النظامية ، وان الشبه بين المستنصرية ، وبين بناية « القصر العباسى » قوى جدا مما يدل على ان هذه البناية مدرسة كالمستنصرية وكالمرجانية . ولذلك نذكر ان هذه المقارنة الفنية بينها وبين المدرستين المذكورتين ، ينبغى ان تكون فى

---

(١) مجلة التفيض ج ٢٣ ص ١١ ـ ١٧ و ج ٢٧ ص ٨١ ـ ٨٦ .
وراجع الحوادث الجامعة ص : ١١١ ، ١٣٢ ، ١٨٦ .

التشابه القوي فى الامور التالية :

١ـ فى المخططات • ٢ـ فى الأبواب والمداخل • ٣ـ فى الساحات والصحون • ٤ـ فى الاواوين • ٥ـ فى المجازات والدهاليز والاروقة • ٦ـ فى القاعات الكبرى • ٧ـ فى القاعات التى زخرفت رتاجاتها • ٨ـ فى حجوم الحجر والغرف • ٩ـ فى الزخارف الآجرية • ١٠ـ في المساجد التى فى الضلع القبلية فى كل من هذه المبانى الثلاثة • ١١ـ فى طراز التسقيف وطراز الريازة •

لقد ثبت لمديرية الآثار العامة ، مما قامت به من التحريات فى أثناء التنقيب عن الاسس التى اندثرت من هذه البناية ، ان الاسس أصلية لم يظهر فيها أى أثر يدل على النقض • فآجر الاسس والجدران القائمة كلها من نوع واحد ، وحجم واحد ، ولم يظهر ما يدل على اضافة اسس أخرى • كما أنه ليس ثمة أسس ، أو جدران تتعارض مع الاسس القديمة ، كالذى وجدناه واضحا فى جامع الحجاج بواسط ، حيث انشئت ثلاثة جوامع فوق جامع الحجاج ، وفى غيره من المبانى التى كانت عرضة للنقض ، والبناء ، والتجديد ، والترميم • وفى هذا دلالة كافية على أنه لم يحدث عليها أى بناء آخر ، مما لا يخامرنا شك فى ان هذا المكان ليس « دار تتر »[١] التى نقضها الخليفة المقتفى لأمر الله العباسى سنة ٥٤٧هـ (١١٥٢م) ، والتى انشأ عليها الناصر لدين‌الله « دار المسناة » كما يذهب الى ذلك الزميل الدكتور « مصطفى جواد[٢] » وبعبارة أخرى ليست هذه العمارة « دار المسناة » التى انشأها الناصر لدين‌الله العباسى •

---

(١) هو احد امراء السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه السلجوقى •

(٢) مجلة سومر • الجزء الثانى من السنة الاولى ص ٦١ ـ ١٠٥ •

ان عدد الحجرات ، والغرف فى الضلع الشرقية من هذه العمارة يبلغ ١٦ غرفة • ويحتمل انه كان يقابلها ١٨ غرفة ، فى طابقى الضلع الغربية كما هو واضح فى المخطط المرقم (١) • وقد نتج هذا التباين فى عدد غرف هتين الضلعين المتناظرتين بسبب اتخاذ طرفى الضلع الشرقية مجازين يتصلان بالرواق ، والدهليز • وليس الامر كذلك فى الضلع الغربية • وفى هذه البناية غرف صغيرة أخرى غير التى ذكرناها ، ولذلك يمكن ان يبلغ مجموع ما فى هذه البناية من حجر وغرف ، الاربعين ، ما عدا القاعات الكبرى ، والمنشآت الاخرى •

ان عرض الحجر والغرف بوجه عام لا يتجاوز ٣٢ سم ٢ متر (مترين واثنين وثلاثين سنتيمترا) وان طولها ٨٠ سم ٣ متر (ثلاثة أمتار وثمانون سنتمترا • واكثرها خال من الكوى ، والمشاكي • ولذلك يمكن أن نتساءل عن الاغراض التى انشئت من اجلها هذه الحجر ، والغرف التى تطل على ساحة واحدة ، أو صحن واحد ، وعلى أروقة مزخرفة ، هل كانت تتخذ لسكنى الخليفة ونسائه ؟ أو أن نساء الخليفة وجواريه كن يستقبلن سيدهن الخليفة فى هذه الغرف الضيقة ، البسيطة ، الخالية من كوى الاضاءة ، والتهوية ، أم أن الغرف الكبيرة التى كان يسكن فيها الخليفة الناصر لدين الله ، ونساؤه ، وحاشيته ، وأهل بيته قد نقضت ، وبني مكانها هذه الغرف الصغيرة • وللوصول الى الجواب الصحيح ينبغى علينا ان نبحث فى أمرين اثنين اولهما : هل هذه الغرف اصلية أم محدثة ؟ وثانيهما : هل يوجد مثل هذه الغرف فى قصور الخلفاء فى بغداد ، وسامراء ، اتخذت مساكن للخلفاء ، ونسائهم وجواريهم ، أم لا ؟

ان التحريات ، والتنقيبات التى اجرتها مديرية الآثار فى هذه البناية ، تدل على أن الغرف الصغيرة فى الطبقتين العليا ، والسفلى ، والايوان ،

والمجازات ، والاروقة ، والدهاليز ، والقاعات الكبرى ، والمدخل ، والزخرفة على اختلافها هى من المبانى الاصلية كما اسلفنا ، بنيت حين وضعت تصاميم هذه البناية ، وليست من المبانى التى استحدثت بعد ذلك لاتصال الزخرفة ، وتناسق الدعائم ، والجدران ، وانسجام بقية المرافق الاخرى • ويهمنا فى بحثنا هذا ان نثبت للقارىء ان الغرف الصغيرة المذكورة بنيت فى أول الامر بهذا الحجم الصغير كغرف المستنصرية ، والمرجانية • واذا كانت غرف المستنصرية التى تكبرها شيئا قليلا قـد اتخذت بيوتاً للطلاب فمن الاولى والاقرب الى الواقع ان تكون غرف « القصر العباسى » بيوتاً للطلاب أيضا • ولا بد ان نقرر أيضا ان هذه الغرف الصغيرة تختلف اختلافا كبيرا عن تلك الغرف الواسعة التى وجدناها فى أثناء التنقيب فى سامراء ، تلك الغرف المبلطة بالآجر المزجج ، أو القاشاني المعرّق ، المؤزرة بالرخام المفوّف ، المطعمة جدرانها بالفسيفساء ، المموهة سقوفها بماء الذهب ، المحلاة بشبابيك الزجاج ذى الالوان المختلفة ، المزينة بالمشاكى الجميلة من الجبس أو الجص •

اين هذه البناية المظنون انها قصر أو دار المسناة الناصرية ، من المبانى الواسعة ، والقصور الفخمة فى سامراء وواسط ، وبغداد • ان التنقيبات التي أجريناها في سامراء سنة ١٩٤١م في الموسم الخامس فىدور العامة ، ودور القواد ، ودار الخلافة ، وقصور الخلفاء ، وابنائهم وامرائهم قد دلت على وجود حجر ، وغرف أوسع بكثير من الحجر والغرف التى اشتملت عليها البناية المدعوة خطأ بـ « القصر العباسى » بل اننا لم نجد تقريبا بين الغرف فى دور السكنى على كثرتها غرفة واحدة عرضها كعرض هذه الغرف سواء كان ذلك فى دار الخلافة فى سامراء أو بيت « الامام » الواقع بلصق الضلع الجنوبية لجامع المتوكل المعروف بجامع « ابى دلف » اليوم ، أو فى قصر « الحويصلات » • ولا فى الاقسام التى بنيت على الطراز الحيرى ذي الصدر

والـكُـمَّيْن[1] في كثير من دور السكنى في سامراء • ولا في دور القواد والامراء التي بنيت على جانبي الشارع الاعظم الذي كان عرضه مئة متر ، فالغرف فيها مزخرفة وواسعة كأنها القاعات الفسيحة • وقد وجدنا في أثناء التنقيبات في احد دور الشارع الاعظم بهواً فخماً يتكون من ٥ حجرات × ٥ حجرات أكثرها مزخرف ، تنفتح على بعضها ، وتكون منظرا خلابا • اما في بيت الخليفة ، وقصر المعتز الذي يسميه أهل سامراء (المنقور) ، والمعشوق ، والجعفري ، والقصور الاخرى فالغرف فيها عديدة جدا وواسعة جدا ، ومزخرفة بأنواع الزخارف الرخامية ، أو الجصية أو الجبسية وبالفسيفساء ، والآجر المزجج • هذا في سامراء قبل رجوع الخلفاء الى بغداد • ولا نشك مطلقا في ان غرف القصور البغدادية ، كقصر الذهب أوباب الذهب ، والخلد ، والقرار ، وقصور البرامكة ، والتاج ، والفردوس ، والثريا ، والحسنى ، والدار المعزية ، ودار المسناة كانت أعظم بهاء ، وسعة من تلك الغرف • فالاخبار متواترة ومتظافرة عن سعة هذه القصور ، وجمال مشتملاتها •

ويكفي للدلالة على ذلك ان نذكر ان طول سور « المنقور » وهو الذي بناه المتوكل لابنه المعتز يبلغ ١٢٠٠ متر ، ومساحته تزيد على ثلاثة أضعاف مدينة سامراء الحالية • واطلال قصر المتوكل المعروف بالجعفري كأنها مدينة قائمة بذاتها • وبيت الخليفة أو دار الخلافة تبلغ مساحتها نحو ٨٠٠ × ٩٠٠

---

(١) الحيري • نسبة الى الحيرة • قال المسعودي : (وأحدث المتوكل في أيامه بناءً لم يكن الناس يعرفونه وهو المعروف بالحيري والكمين والاروقة وذلك ان بعض سماره حدثه في بعض الليالي ان بعض ملوك الحيرة من النعمانية من بني نصر احدث بنيانا في دار قراره وهي الحيرة على صورة الحرب ، وهيأتها للهجته بها ، وميله نحوها لئلا يغيب عنه ذكرها في سائر أحواله ، فكان الرواق مجلس الملك وهو الصدر ، والكمان ميمنة وميسرة • ويكون في البيتين اللذين هما الكمان من يقرب منه من خواصه • وفي اليمين منهما خزانة الكسوة ، وفي الشمال ما احتيج اليه من الشراب • والرواق قد عم فضاؤه الصدر ، والكمين ، والابواب الثلاثة على الرواق • فسمي هذا البنيان الى هذا الوقت بالحيري والكمين اضافة الى الحيرة • واتبع الناس المتوكل في ذلك ائتماما بفضله ، واشتهر الى هذه الغاية) •

متر • وطول بناية المعشوق الداخلية ١٣١ مترا وعرضها ٩٦ مترا • وبين هذه البناية وسورها الخارج مبانٍ فرعية عديدة[١] • اما فى بغداد فقد روى ياقوت الحموى ان قصر عيسى بن علي عم المنصور بالجانب الغربى كان يسكنه أربعة آلاف نفس[٢] • وسمي قصر المنصور بالخلد تشبيهاً له بجنة الخلد لما يحويه من كل منظر رائق[٣] • واما الثريا قصر المعتضد بالله فكان نهر موسى الآخذ من نهر (بِيْن) يدخله ، ويدور فيه ، ويخرج منه • وأما نهر المعلى فكان يدخل قصر الخلافة المسمى بالفردوس فيدور فيه ، ويصب فى دجلة • وكان نهر آخر يدخل القصر الحسني ، ويدور فيه ، ويصب فى دجلة • وكان نهر المهـدي يصب فى بركة فى جوف قصر الرصافة[٤] •

فأين اذن هذا البناء الصغير ، وغرفه الضيقة من هذه القصور العظيمة ؟ ولأى الامور كانت تستخدم هـذه الغرف الصـغيرة العديدة الموجـودة فى ما يسمى بـ « القصر العباسى » اليوم ؟ • وللاجابة على هذا السؤال ينبغى ان نقارن بين هذه البناية وبين المستنصرية والمرجانية لعلنا نظفر عندها بالجواب الذى يكشـف لنا عن حقيقتهـا • ان التشـابه بين هـذه البنـاية وبين المدرستين : المستنصرية ، والمرجانية قوى وشديد بحيث لا يترك مجالا للشك فى ان « القصر العباسى » كـان مدرسة عباسية • واليك اوجه الشبه فى الامور التالية :

١ ـ مخطط « القصر العباسى » ومقارنته بمخطط المستنصرية والمرجانية •

ان هذا المخطط قريب الشبه جدا بمخطط مدرستين معروفتين هما : المستنصرية والمرجانية • ففى الضـلع القبلية فى كل من هـذه العمارات الثلاث : أ ـ مسجد أو جامع • وقبالة الجامع ايوان فخم فى كل من « القصر العباسى » والمرجانية • اما جامع المستنصرية فيقابل ايوان المدخل الفخم ، الرفيع ، المزخرف • ب ـ فى البنايات الثلاث حجرات وغرف عديدة فى

---

(١) سامراء ـ نشرة مديرية الآثار سنة ١٩٤٠ •
(٢) معجم البلدان ٤ A ص ١١٨ •
(٣) الخطيب البغدادى ١ : ٧٥ •
(٤) الخطيب البغدادى ١ : ١١٤ ـ ١١٥ •

الطابقين عدا الضلع القبلية حيث المسجد أو الجامع • جـ ـ فى البنايات الثلاث سلالم فى الطابقين يصعد بها من الصحن الى الطابق الثانى والى أعلى السطح يظهر منها أربعة سلالم فى المرجانية وستة فى المستنصرية واثنان فى « القصر العباسى » تبدو آثارهما فى الغرفتين الواقعتين على طرفى الايوان• ولا شك فى أنه كانت فيه سلالم أخرى مما يلي الجامع أو فى أمكنة أخرى غيرهـــا •

٢ ـ الابواب والمداخل :

ان الباب الرئيس فى المســتنصرية مدخــل رفيع مزخرف أعــلاه وجانباه من الخارج بزخارف رائعة ، وكانت عليه كتابة آجرية بالخط النسخى ، محشاة بزخارف آجرية فى منتهى الذوق • والباب يفضى الى مجاز معقود عال ، مزخرف ، على هيأة الاواوين الـكبرى • وفى المرجانية باب عال أيضا فوقه كتابة ، مزخرفة ، كما زخرف أعلاه ، وجانباه أيضا ، وجهته المطلة على الصــحن • والباب يفضى الى مجــاز معقود يتصل بمشتملات المدرسة الاخرى •

وفى « القصر العباسى » باب درست معالم الزخرفة والـكتابة التى يحتمل أنها كانت على جبهته • وهو يفضى الى مجاز أنيق ، مزخرف سقفه وجدرانه بزخارف آجرية جميلة للغاية • وفيه دكات يظهر انها كانت للبوابين والفراشين ولذلك فان هذا المدخل أحرى ان يكون مدخل مدرسة من ان يكون مدخل قصــر أو دار • وهــذا المدخل يتصل بالمســجد ، والصحن ، والدهليز ، والرواق •

ان هذه الابواب الثلاثة فى هذه المدارس الثلاث تتشابه من جميع الوجوه الا في أمر واحد هو ان في باب المدرسة المرجانية اليوم مئذنة قائمة فى الركن الايســر منــه • وليس الامر كذلك فى المستنصرية و « القصــر العباسى » وينبغى ان يلاحظ ان هذه المئذنة مستحدثة ويحتمل ان سليمان باشــا والي بغداد بنــاها فى سنة ١٢٠٠هـ حينما وسع المصلى وجعــل من المدرسة جامعاً •

ويظهر ان المعمار الذى بنى بناية « القصر العباسى » كان أدق من

غيره حين جعل المجاز وما يتصل به من الاروقة والدهاليز متصلة ببعضها ، لتقي الطلاب ، وأرباب هذا المعهد من المطر ، والشمس • وليس الامر كذلك فى المستنصرية لأن مدخلها يفضي الى الصحن مباشرة • وربما استنتجنا من ذلك ان هذه البناية قد بنيت فى أثناء بناء المستنصرية أو بعدها وليس قبلها • وأن المعمار الذى اشرف على بنائها استفاد من هذا النقص الملحوظ فى بناية المدرسة المستنصرية فعالجه فى بناية « القصر العباسى » •

٣ ـ الساحات أو الصحون :

وهى الافنية التى تتشابه فى هذه المبانى الثلاثة ، مما يدل على ان بناية « القصر العباسى » كانت مدرسة أيضا ، فالصحن فيها واحد ، وليس ثمة أى احتمال فى تعدد صحونه أو رحباته • أى انه ليس فيه صحن آخر للحرم • والاحتمال الوحيد ان يكون ذلك فى الحد الاعلى من البناية • وحيث ان الاسس والغرفتين الموجودتين فى هذه الضلع ، وبقايا الجدران الارضية ، والفوقانية لا تزال موجودة حتى هذه الايام ، وحيث ان التناظر يستلزم ان تكون هذه الضلع كالضلع الشرقية المقابلة لها ، باستثناء المجازين ، اللذين فى هذه الضلع الشرقية فاننا نستطيع ان نجزم ان هذه البناية تتكون من ساحة أو رحبة واحدة[1] فقط يطل عليها المسجد ، والايوان المقابل له بحجره وغرفه ، كما تطل عليها الحجر ، والغرف التى فى الضلعين الشرقية والغربية • ويتصل الصحن بالاروقة والدهليز •

ان هذا الصحن يشبه تماما صحن المدرسة المرجانية ، وصحن المدرسة المستنصرية اللذين يطل على كل منهما المسجد ، والاواوين • وتتصل به الاروقة والدهاليز ، ومنه يفضى الى بيوت الطلاب •

وتختلف هذه الصحون بسعتها وشكلها ، ففى كل من « القصر العباسى » والمرجانية صحن مربع تقريبا ، والصحنان رحبتان صغيرتان اذا

---

(١) ترى مديرية الآثار العامة فى نشرتها عن « القصر العباسى » سنة ١٩٣٥ ان القصر كان مؤلفا من عدة احواش وليس الامر كذلك لانه ليس لدينا ما يدل على هذا الامر •

قيستا بصحن المدرسة المستنصرية ، علاوة على ان المستنصرية بالنظر لسعتها وكثرة طلابها ، وتعدد أقسامها العلمية ، كان فيها فيما يظهر أكثر من صحن واحد • فمدرسة الفقه كان لها صحن كبير هو الرحبة الباقية حتى اليوم وتبلغ مساحتها « ٦٠ر٦٢ مترا × ٧٥ر٢٦ متراً » • ودار القرآن ، كان لها صحن فيه اليوم جامع الآصفية • ومما يدل على ذلك فتحة الايوان الذى فى دار القرآن • وربما كان لمبانيها الاخرى التى كانت تجاورها أو تصاقبها ساحة أخرى درست معالمها •

ويمكن ان نقارن بين هذه الصحون فى هذه البنايات الثلاث • فصحن « القصر العباسى » مربع تقريبا ، طوله (٥ر٢١) واحد وعشرون مترا ونصف المتر • وعرضه (٢٠) عشرون مترا •

واما المدرسة المرجانية ، فصحنها مربع أيضا طوله نحو (٢٣) مترا ، وعرضه مثل ذلك •

٤ ـ الاواوين :

ويمكننا ان نعرّف الايوان بأنه طاق كبير عال مدبب العقادة يشبه قاعة كبيرة • يبنى فى صدر احدى الاضلاع فى المبانى الكبرى ، كالمدارس أو دور الخلافة أو القصور • والايوان فى هذه العمارات يقابل الصدر فى الطراز الحيرى ذى الصدر والكُمَّيْن • ويكون عادة مفتوحا على الصحن من جهته الامامية ، ويعرف فى العراق باسم « الليوان » • ومنه ايوان كسرى فى المدائن « سلمان باك اليوم » • وقد يتخذ للتدريس ، والاحتفالات • وفى المدرسة المستنصرية اليوم أواوين عظيمة منها : ايوان دار القرآن • وايوان الشافعية • وايوان الحنفية • وايوان المدخل • وعقود عديدة تمثل بعض الاواوين الصغيرة • والاواوين الكبرى فى هذه المدرسة تشبه تماما الايوان الموجود حاليا فى بناية « القصر العباسى » من حيث طراز البناء ، والسعة ، والزخرفة ، والمتانة • ومثل ذلك يقال عن ايوان المدرسة المرجانية الفخم الذى كان يتميز بوجود كتابة فيه تحيط بها الزخرفة •

ان السقف فى ايوان « القصر العباسى » بيضى الشكل ، ومزين

بزخارف تبدأ من علو ثلاثة أمتار ونصف المتر • وقد جعلت كذلك لئلا تمسها الايدى فتتلفها • والقسم المزخرف من الجدران يبرز عن أقسام الجدران السفلى على هيأة افريز جميل • والقسم الامامى من الايوان مزدان بنطاق من الزخارف تزيد فى جمال الايوان • ويلاحظ ان هذا النطاق الزخرفى الامامى ينزل الى ما تحت مستوى الافريز الذى فى داخل الايوان • ويتصل بطاقين صغيرين يعلوان العقدين الجانبيين الواقعين فى طرفى الايوان • اما اواوين المستنصرية فتشبه هذا الايوان من حيث الشكل ، والسعة ، والارتفاع ، وتنوع الزخرفة ، وارتفاعها عن الارض • وكانت الزخرفة واضحة فى ايوان الحنفية وضوحا تاما عندما اثبتنا فى مقالنا الذى نشرناه فى مجلة التفيض سنة ١٩٤٦م ان « القصر العباسى » مدرسة وليس قصرا ولا دارا • ولم تكن الزخارف يومئذ واضحة فى ايوان الشافعية الذى يقابله ، ولا فى المدخل ولذلك قلنا : « اما زخارف الاواوين الاخرى فيظهر ان بعضها مستور تحت طبقة التبيض » • ولقد صدق حدسنا فقد ازيل الجص عن زخارف الايوان الشافعى ، وعن ايوان المدخل • وظهرت زخارف رائعة جدا لا تقل روعة عن زخارف ايوان « القصر العباسى » ، بل تماثلها من حيث الاتقان ، والتنوع • ان ايوان « القصر العباسى » واواوين المستنصرية وايوان المدرسة المرجانية بهيأتها وارتفاعها توازى الطبقتين وتتشابه حتى فى حجومها فسمك الايوان فى القصر العباسى أكثر من تسعة أمتار ، وطوله ثمانية أمتار ونصف المتر وعرضه نحو خمسة أمتار ، وسمك الايوان فى المستنصرية أكثر من تسعة أمتار وعرضه ستة أمتار • ومثل ذلك يقال عن ايوان المدرسة المرجانية •

٥ ـ المجازات والدهاليز :

فى الضلع الشرقية لكلتا العمارتين مجازان متشابهان ، يفضيان الى دهليز طويل شاهق ، ذى كوى سقفية ، ممتد من وراء الحجرات • طوله فى « القصر العباسى » ٢٦ر٧٠ مترا • وعرضه ١ر٢٨ • وسمكه أو ارتفاعه ٩ر٢٠ ، وطوله فى المستنصرية

٣٤ر٦٠ • وعرضه ١ر٤٠ • وسمكه تسعة أمتار • والدهليزان متشابهان تشابها تاما • وحيث ان المستنصرية أوسع من المدرسة التى فى « القصر العباسى » والتى نرى أنها « المدرسة الشرابية » لذلك نجد فيها دهاليز أخرى قصيرة على هـذا النسق ، كالدهليز الذى يقع خلف القاعتين الـكبيرتين الواقعتين مما يلى ربع المالـكية •• الخ • (راجع صور الدهاليز) •

٦ ـ القاعات الـكبرى :

وفى كـل من هـذه الدهـاليز أبواب تفضـى الى قاعـات كبـرى عددهـا سـبعة فى المسـتنصرية ، وخمسـة فى « القصـر العباسى » [الشرابية] وهذه القاعات متشابهة تشابها غريبا فى التخطيط ، والارتفـاع ، والحجوم تقريبا • وكذلك فى الـكوى السقفية ، والمنـافذ الهوائية ، وهى « الملاقف » التى تسمى عندنا « بادكيرات » • وأرى ان هذه القاعات كان بعضها للتدريس ولرجال الادارة ، وبعضها الآخر كان لخزن الكتب • فان (أ) و(ب) و(ج) و(د) في المستنصرية كانت للتدريس وكل واحدة منها تتسع لـ ٦٢ طالبا • وان (هـ) للناظر في مصالح المستنصرية • وان (و) إما ان تكون لجلوس المدرسين أو للموظفين التابعين للناظر كالمشرف والكاتب • وكذلك يمكن ان يقال عن قاعات المدرسة الشرابية انها بنيت لنفس الغرض الذى استعملت من اجله القاعات الكبيرة فى المستنصرية فان ق٥ كانت للتدريس وهى تتسع لـ ٢٥ طالبا وهم الطلاب الذين كانوا فى المدرسة الشرابية اذ ان مساحتها ٨ر٨٠ × ٤ر٢٠ • واما ق٤ و ق٣ وهما تنفتحان على بعضهما ويفضى اليهما من الدهليز ، من مدخل واحد ، فنرجح انهما كانتا لخزانة الـكتب • وهما تشبهان القاعتين اللتين فى المستنصرية واللتين قلنا ان من المحتمل انهما كانتا محل خزانة الـكتب المستنصرية • وهما تنفتحان على بعضهما ويدخل اليهما من صحن المدرسة كما انهما تشبهان قاعتين اخريين فى الضلع الشرقية يدخل اليهما من الدهليز الـكبير ومن الدهليز الجانبى الصغير ، وهما تنفتحان على بعضهما أيضا • وحجم هاتين القاعتين ق٤ يبلغ ٥٨ر٦ × ٢١ر٥ ومساحة ق٣ تبلغ ٥٨ر٦ × ٦٥ر٤ • وارتفاع كل واحدة من هذه القاعات نحو تسعة

أمتار • واما القاعة ق١ فنرى انها غرفة الناظر فى مصالح المدرسة • ومساحتها ٢٠ر٤ × ٢٠ر٥ مترا واما القاعة ق٢ فمن المحتمل ان تكون لجلوس المدرسين وهى أكبر قليلا من غرفة الناظر • والقاعتان ق١ و ق٢ تتشابهان الى حد كبير مع قاعتى المدرسة المستنصرية هـ ، و • لاحظ المخطط •

٧ ـ غرفة الناظر :

ان ق١ أول قاعة من قاعات « القصر العباسى » فى الضلع الشرقية مزخرف رتاجها ، أى أعلى بابها بزخارف آجرية جميلة جدا كما انه يوجد فى الضلع الشرقية من المستنصرية قاعة على الدهليز الكبير تشبه القاعة المذكورة هى الوحيدة بين قاعات المستنصرية فى الضلع المذكورة مزخرف رتاجها بزخارف آجرية أيضا • مما يدل على انهما كانتا تستعملان لغرض واحد • فاذا كانت تستعمل فى المستنصرية للوالى أو للناظر فى مصالحها فلا شك ان الثانية كانت تستعمل لنفس الغرض • ويلاحظ ان كلاً من القاعتين المذكورتين تطل على مجاز يفضى الى صحن المدرسة •

٨ ـ الحجر والغرف :

فى القصر العباسى حجرات وغرف صغيرة فى الطابقين على طرفى الايوان وفى الاضلاع الاخرى ، ذكرنا ان عددها قد يناهز الاربعين • وفى المستنصرية نحو ١٠٠ من هذه الحجر والغرف عدا القاعات الكبرى ، والاواوين ، والمسجد ••• وعرض الغرف الصغيرة فى الطبقة السفلى ٤٢ سم/٢ متر • وطولها سبعة أمتار • وعرضها فى الطبقة العليا ٤٢ سم/٢ متر أيضا • وطولها ٣٢ سم ٥ متر • وتقع هذه الغرف على جوانب الاواوين المذكورة فى الاضلاع الاربع • فاذا كانت غرف المستنصرية التى رأيت سعتها قد اتخذت بيوتا للطلاب فمن الاولى ان تكون غرف « القصر العباسى » بيوتا للطلاب أيضا •

٩ ـ الزخارف الآجرية :

ان الزخارف فى « القصر العباسى » وفى المستنصرية ، والمرجانية تتشابه الى حد بعيد فى الكمية ، والنوعية فلقد يخيل للناظر الى هذه الزخرفة انها حقول واسعة من الوشى والتزويق يكاد لا يخلو منها مكان فى كل واحدة من هذه العمارات المهمة • ويظهر ذلك جليا بعد العثور على تلك الثروة الزخرفية فى المدرسة المرجانية التى كانت مستورة تحت طبقة من الجص منذ العهد العثمانى • كما ان الزخارف التى ظهرت فى باب المستنصرية ، وايوان المدخل والايوان الشافعى تدل على ان هذه الزخارف الآجرية تمتاز بتنوعها ووفرتها • ولقد كان يظن ان زخارف « القصر العباسى » لا مثيل لها من حيث الدقة والكثرة[1] فلما كشف عن زخارف المستنصرية ، وزخارف المدرسة المرجانية التى كانت مستورة تحت الجص فى المصلى ثبت لنا ان هذه الزخارف من طرز ممتاز ، وانها تتشابه تشابها تاما مما يدل على ان « القصر العباسى » كان قد بنى مدرسة منذ الاساس •

لقد ظن بعض العلماء كما أسلفنا ومنهم (هنرى فوليه) الفرنسى ان هذه الزخارف مصنوعة من الكلس (Stuc) بواسطة قوالب ، غير أن العراقيين يدركون تماما خطأ هذا الظن لانهم لا يزالون يستعملون الزخارف الآجرية وبخاصة المقرنصات Stalactites فى مبانيهم الخاصة ، والعامة لاسيما فى الجوامع والمآذن •

ان زخارف هذه العمارات الثلاث سواء كانت فى السقوف ، أو الجدران أو المقرنصات التي في الاروقة تتألف من قطع من الآجر محفورة ، ومنقوشة • وبتراصفها أو غرزها فى الجدران ، والسقوف تتكون أشكال هندسية أو زهرية • كما ان بعض الزخارف تتكون من خليط من الاشكال الهندسية والزهرية فى آن واحد • وأن الزخارف الهندسية كل جزء من أجزائها مزخرف أيضا بنقوش إما هندسية ، وإما زهرية •

---

(١) بقايا القصر العباسى ص ٢٣ •

ويلاحظ ان أكثر الزخارف فى هذه المبانى الثلاثة تتكون من قطع من الآجر المزخرف يلتحم مع بعضه بواسطة قطع آجرية رقيقة تقع زخرفتها على جزئها السميك ، وليس على سطحها العريض • وقد يرى ان حافات هذه القطع الرقيقة كثيرا ما تبرز عن سطوح القطع التى تقع بينها وبذلك تكون الزخارف ذات نتوآت كثيرة تزيدها جمالا •

ويلاحظ أيضا ان هذه القطع الرقيقة تكون فى بعض الاماكن منحنية السطوح تقع زخارفها على سطوحها المقعرة • ونتيجة تلاصقها وتراصفها يتكون منها مقرنصات ، وقبب مزخرفة فى غاية الاتقان ، والجمال •

وقد يظهر للباحث فى الزخارف ان أجمل الزخارف تظهر فى مجاز « القصر العباسى » (المابين) ورواقه ، وزواياه ، وفى الايوان • كما انها تظهر بشكلها الرائع في باب المستنصرية ، وصحنها واواوينها • اما دار القرآن المتصلة بالمستنصرية فى الحد الاعلى منها فقد قال ابن الساعى عنها : « لم ير مثلها احد ، وليس لادراك وصفها أمد»[1] • ولا عجب فان المؤرخين المسلمين اجمعوا على ان المستنصرية لم يكن لها نظير فى العالم ، كما انه لم يبن مثلها ، قبلها ، ولا بعدها • ويظهر ان مدارس بغداد كانت كلها تحظى بمثل هذه العناية الفائقة من الناس • فقد قال ابن جبير يتحدث عن مدارس بغداد وعناية القوم بأمرها : « والمدارس بها نحو الثلاثين ، وهى كلها بالشرقية وما منها مدرسة الا ويقصر القصر البديع عنها ••• ولهذه البلاد فى فى أمر هذه المدارس ، والمارستانات شرف عظيم ، وفخر مخلد »[2] • واما الزخارف فى المرجانية فقد ظهرت فى المصلى الذى نقل مكانه القديم الى مكان يجاوره بغيـة تعديل استقامة شارع الرشيد سنة ١٩٤٨م • وكانت من الاتقـان والبداعة بحيث يمكن مقارنتها من حيث الـكثرة ، والتفرع ، والدقة ،

---

(١) راجع كتابنا تاريخ علماء المستنصرية ص ١٨٣ ــ ١٨٤ •
(٢) ابن جبير طبعة اوربا ص ٢٢٩ • وطبعة المـكتبة العربية ببغداد ص ١٨٣ •

بزخارف المستنصرية ، و « القصر العباسى » مما لا يدع مجالا للشك فى ان « القصر العباسى » كان مدرسة كالمستنصرية ، وكالمرجانية .

لقد ظهر التنوع والتفنن فى الزخرفة فى هذه المبانى الثلاثة بعد أن ظل المعنيون بالآثار يرون أن زخارف « القصر العباسى » لا مثيل لها فى بغداد ، لان التزيينات الهندسية ، والزهرية والزخارف المتكونة من امتزاج هذين النوعين ، ومن التزيينات التى تحاكى السجاد ، والمقرنصات التى تشبه خلايا النحل ، أو الاحجار المنقورة ، والنقوش التى تشبه الاخشاب المحفورة ، كلها تتنوع من ناحية الى أخرى . وفى الناحية الواحدة تتنوع من بقعة الى أخرى بصورة عجيبة ، محيرة . كل ذلك حدا بمديرية الآثار ان تعتقد ان هذه الزخارف قد اكسبت هذا « القصر » ! مكانة فنية خاصة فقالت عنه : « غير أنه لا يوجد قصر أو معبد بلغت فيه الزخرفة بواسطة الآجر الى هذا الحد من التنوع ، فى الفروع مع البداعة فى المجموع »[1] . على اننا نرى ان هـذا التنوع ، والابداع قـد ظهرا فى المستنصرية فى الباب ، وايوان المدخل . وفى ايوان دار القرآن ، وفى ايوان الشافعية والحنفية ورتاجات الحجر والغرف كما ظهر في مصلى المرجانية بشكل لايقل عن تلك المكانة الفنية الخاصة فى « القصر العباسى » وان زخارف هـذه المبانى الثلاثة تمثـل « الدرجة القصوى » التى وصلت اليها زخرفة الريازة العربية فى الآجر مما يدل أيضا على ان هذا « القصر » اتخذ مكانا للتدريس كالمستنصرية وكالمرجانية .

١٠ ـ المساجد والمصليات :

وفى القصر العباسى آثار قاعـة كبيرة طولها ١٢٫٨ مترا وعرضهـا ٥٠ سم ٤ أمتار ويزيد ثخن اسسها على المترين تقابل الايوان ، وتطل على الصحن . ونستطيع ان نجزم انها كانت مسجد المدرسة . حيث يصلى الطلاب ، وأرباب هذا الوقف . وهذا المصلى يشبه مصلى المستنصرية الواقع

---

(١) بقايا القصر العباسى ص ٢٩ .

قبالة ايوان المدخل ، ويطل على صحنها ، وقد ظهر محرابه بعد ما كان مستوراً ببعض المبانى المحدثة • كما ان مصلى المدرسة المرجانية يشبه هذين المسجدين الى حد كبير • فهو بارتفاع الطابقين ويتكون سقفه من ثلاث قبب • ويقابله ايوان فخم • وفيه كتابات محفورة بين شبكات من الزخرفة الآجرية الزهرية والهندسية •

١١ ـ طراز التسقيف :

واما طراز التسقيف فى المستنصرية و « القصر العباسى » فهو متماثل تماما بل هو واحد فى البنايتين • فعقادة الايوان فى « القصر العباسى » تشبه تماما عقادة اواوين المستنصرية والمرجانية • وتسقيف الدهليز والغرف الصغيرة ، والقاعات الكبرى ، والاروقة لا يختلف مطلقا عما هو فى المستنصرية يضاف الى ذلك ان جميع العقادات فى هاتين البنايتين مبنية اما على الشكل المعروف باسم « الدور » وهو الذى يشبه مقطع نصف البيضة كما يظهر ذلك فى سقوف الاواوين ، والمجازات فى كلتا البنايتين • واما على الشكل المعروف بـ « المدنى » الذى يشبه مقطع سلة مسطحة القعر ، مقوسة الجانبين ، كما يظهر ذلك فى سقوف الغرف الصغيرة ، والقاعات الكبيرة فى هاتين البنايتين •

وينبغى ان يلاحظ :

١ ـ ان طاق الايوان فى « القصر العباسى » يعتبر أكبر طاق معقود على الطراز الاول • والسقف قائم على جدارين تبلغ المسافة بينهما خمسة أمتار • اما طوق أواوين المستنصرية فتعتبر أكبر الطوق المعقودة على الطراز الاول أيضا وتبلغ المسافة بين جداري الايوان ستة أمتار •

٢ ـ ويلاحظ أيضا ان أكبر سقوف القاعات الكبرى المعقودة على الطراز الثانى فى « القصر العباسى » يرى فى القاعة المرقمة (٤) كما يلاحظ ان السقف محمول على جدارين تبلغ المسافة بينهما ٥ر٢١ أمتار • بينما نجد ان أكبر السقوف المعقودة على الطراز نفسه فى المستنصرية فى القاعة المرقمة (ب) فالسقف فيها يعلو جدارين يبعد احدهما عن الآخر ستة أمتار •

٣ ـ ان عقود الابواب فى كلتا البنايتين تجمع بين الطرازين الاول

والثانى المذكورين لان كل باب يتألف من طابقين ، الخارجى منها على شكل « الدور » والثانى على هيأة « المدنى »[1] .

لم يبق بعد هذا التشابه العام الذى شرحناه ، بين بناية « القصر العباسى » وبين المستنصرية الا ان نذكر الفوارق التى بينهما لنرى انها فوارق لا تستحق الذكر ولا تكون برهاناً على خلاف ما فصلناه من أمر « القصر العباسى » وكونه مدرسة من المدارس العباسية . ويمكن ان نجمل هذه الفوارق فيما يأتى :

أ ـ فى المساحة . فان المستنصرية كانت أكبر من « القصر العباسى » لانها كانت تضم ٢٤٨ طالبا فى مدرسة الفقه ، و ٣٠ طالبا فى دار القرآن و ١٠ طلاب فى دار الحديث ، و ١٠ فى مدرسة الطب ... الخ واذا كان « القصر العباسى » هو المدرسة الشرابية فانها كانت تضم (٢٥) طالبا فقط . وهذه البناية تكفى لمثل هذا العدد .

ب ـ فى الرواق . فان رواق المدرسة الشرابية أى بناية « القصر العباسى » رواق مزخرف وهو يتكون من طبقتين ويقع أمام الحجر الصغيرة ، بينها وبين الصحن . اما فى المستنصرية فلا يوجد رواق فى الطابق الاسفل منها بل تفضى الغرف الى الصحن مباشرة . اما فى الطابق الاعلى فثمة رواق امام الغرف فى كل ربع من ارباع المستنصرية الاربعة منه يدخل اليها ومنه يطل على الصحن . وهو فى هذه الحالة يشبه تماما رواق « القصر العباسى » أيضـــا .

مما تقدم يمكننا ان نستنتج ان بناية « القصر العباسى » تشبه الى حد كبير بناية المستنصرية ، وبناية المدرسة المرجانية أى ان « القصر العباسى » اشبه ان يكون مدرسة من أن يكون داراً أو قصراً فهو يشبه المستنصرية والمرجانية فى الشكل العـام ، والتخطيط ، وحجـم الغرف ، والمجازات

---

(١) بقايا القصر العباسى ٢١ ـ ٢٣ .

والدهاليز ، والقاعات الكبرى ، والاروقة ، والسقوف ، والكوى ، والزخارف ، والمساجد ، والاواوين ، ومواقع السلالم .. الخ فالقصر العباسى والحالة هذه لا يمكن ان يكون قصرا ولا دارا بل لا يمكن الا ان يكون مدرسة . وايوانه كان محلا للتدريس فى غير فصل الشتاء على مذهب واحد . واما فى المستنصرية فكان التدريس على المذاهب الاربعة لان المستنصرية أول مدرسة فى العالم الاسلامى جمعت فيها المذاهب الاربعة بصورة رسمية .

و « القصر العباسى » بناء على ما تقدم ذكره لا يمكن ان يكون دار سكنى للخليفة ، أو لنسائه ، وجواريه ، أو لغيره من الامراء ، والقواد . واحرى به بعد التفاصيل والشروح التى سردناها والمقارنة بينه وبين مدرستين معروفتين ان يكون هو أيضا مدرسة عامرة بالفقهاء ، وان غرفه الضيقة التى هى أصغر من غرف المستنصرية لا تصلح الا لسكنى الطلبة على غرار ما كانت عليه الحال فى حجر المستنصرية وغرفها ، وفى حجر المرجانية وغرفها .

الفصل الثانى

١ ـ موقع المدرسة الشرابية

وبعد أن اثبتنا بالادلة الفنية ، والتاريخية أن بناية « القصر العباسى » لا يمكن الا ان تكون مدرسة عباسية ، فانه يلزمنا أن نبذل جهدا آخر ، لمعرفة موقع هذه المدرسة ، ومعرفة منشئها .

لقد ظهر لنا فى بحثنا عن مدارس بغداد القديمة[1] ان فى البقعة المحصورة بين باب المعظم ، ومحلة الميدان الحالية ، وبين نهر دجلة ، والتى كان يقع فيها « باب سوق السلطان » وهو « باب المعظم » وسوق العميد ، وسوق العجم أربعة من كبريات المدارس التى انشئت في العصرين : العباسى ، والمغولى . وهى : المدرسة النجيبية ، والعلائية ، والزيركية ، والشرابية

(١) مدارس العراق فى عشرة قرون ـ وهو معد للطبع .

فأما النجيبية فهى المنسوبة الى الشيخ ضياءالدين ابى النجيب عبدالقادر السهروردى المتوفى سنة ٥٦٣هـ ولا يزال ضريحه قائما فيها • والمدرسة لا تزال قائمة حتى اليوم[١] الى جانب المدرسة السليمانية وجامع النعمانية ، والاعدادية المركزية ، قبالة دار الضباط • وأما المدرسة العلائية وهى مدرسة للحنفية تنسب الى الامير علاءالدين بن عبدالمؤمن التركستانى • ويقال لها الشاطئية ، فقد انشئت على كرسى الجسر العتيق المحاذى للمدرسة النجيبية المذكورة آنفا ، فى موضع حسن سنة ٦٩٣هـ • وأما المدرسة الزيركية فهى مدرسة للحنفية أيضا • وكانت فى سوق العميد الواقعة قبالة سوق السلطان • وقد يبدو لاول وهلة ان « القصر العباسى » قد يكون المدرسة العلائية غير أننا بعد البحث والتحرى استرجحنا ان يكون هذا القصر المدرسة الشرابية وهى المدرسة الاقبالية ، أو الشرفية التى اسسها شرف‌الدين اقبال الشرابى • لأن المدرسة العلائية بالرغم من كونها كانت « جميلة البناء ، شاهقة الارجاء » كما يقول ابن الفوطى لا يصح ان تكون هى « القصر العباسى » ولا يمكن ان تدانيه أو تضاهيه من حيث الروعة والجمال بدليل ان ابن الفوطى ذكر انهم ذبحوا لها بقرة تصدقوا بلحمها على الفقراء عند وضع الملبن على الباب[٢] • مما يدل على قلة ثروة مؤسسها اذا قيس ذلك بالبذل الذى بذله اقبال الشرابى وأغدقه على المدعوين يوم افتتاح مدرسته • مما يجعلنا نستنتج ان الزخارف والمقرنصات التى حفلت بها هذه العمارة التى تعد من آيات الفن الاسلامى • وما انفق عليها من أموال طائلة لا يمكن ان تكون فى المدرسة العلائية • ومن المعقول جدا ان يكون هذا البذل والانفاق للشرابى على المدرسة الشرابية ، ناهيك بما بذله على عماراته الاخرى فى العراق ، والحجاز •

---

(١) وقد جدد بناؤها سنة ١٩٤٩م • واضفنا اليها مدرسة كبيرة فى تلك السنة عندما كنت مديرا لاوقاف منطقة بغداد • وجعلت المدرسة متوسطة أول الامر وهى اليوم اعدادية •

(٢) لا تزال هذه العادة متبعة فى بغداد وهى ان تذبح ذبيحة وتوزع على الفقراء وعمال البناء عند تركيب باب الدار •

لقد كان الشرابى اثيرا عند المستنصر بالله ويظهر انه كان يتقرب اليه والى الناس بخدمة العلم ، والدين ويقوم بالاعمال الجليلة الاخرى كبناء المدارس ، والرُبط ، ووقف الاوقاف الكثيرة عليها . فقد روى المؤرخون أنه بنى ببغداد المدرسة الشرابية ، كما بنى مثلها فى كل من واسط مدينة الحجاج . ومكة المكرمة .

اما مدرسته التى ببغداد ، وهى التى تهمنا فى بحثنا هذا فقد بنيت فيما ذكره العماد الحنبلى « فى سوق السلطان[1] » . وذكر النعيمى انها بنيت « بسوق العجم من بغداد[2] » وذكر مؤلف الحوادث الجامعة : ان بناءها كان « فى سوق العجم بالشارع الاعظم بالقرب من عقد سور سوق السلطان [باب المعظم[3]] ، مقابل درب الملاحين »[4] وقال أيضا : « وبنى [الشرابى] ببغداد مدرسة فى سوق السلطان[5] .

وذكر ابن النجار ان سوق السلطان كانت قريبة من دجلة فقد جاء فى الجواهر المضية[6] ان محمد بن محمد البلخى الزاهد المتوفى ببغداد سنة ٦٠٢هـ قدم بغداد واستوطنها « بسوق السلطان فى مسجد له قريبا من دجلة » .

وقد ذكر كثير من المؤرخين ان الذى بنى جامع سوق السلطان هو الناصر لدين‌الله العباسى وقد بناه مقابل سوق العميد ، ويظهر ان المحلة التى عرفت بسوق السلطان كانت حول سوق السلطان وهى محلة الميدان[7] الحالية . كما يظهر ان معظم هذه السوق قد اندمج فى القلعة .

---

(١) شذرات الذهب ج ٥ ص ١٦١ .
(٢) الدارس فى تاريخ المدارس ج ١ ص ١٥٩ .
(٣) احد أبواب بغداد الرئيسة وقد هدم سنة ١٩٢٣م .
(٤) الحوادث الجامعة ص ٢٤ ، ٣٠٨ .
(٥) الحوادث الجامعة ص ٣٠٨ .
(٦) ج ٢ ص ١١٨ .
(٧) راجع حاشية الدكتور مصطفى جواد فى ص ٣٧ من « تكملة اكمال الاكمال » للصابونى وص ١٤٨ من الجامع المختصر لابن الساعى . والكتابان من تحقيق الدكتور مصطفى جواد .

فاذا كانت سوق السلطان هى سوق الميدان التى بالقرب من باب المعظم • ومسجد سوق السلطان فى اغلب الظن هو جامع القلعة الحالى الذى بناه الناصر لدين‌الله العباسى ادركنا ان المدرسة الشرابية يحتمل جدا ان تكون هى « القصر العباسى » واذا كانت هذه المدرسة قريبة من درب الملاحين أو مقابل درب الملاحين كما ورد ذلك فى الحوادث الجامعة فان درب الملاحين لا بد ان يكون مما يلى دجلة على مقربة من بهو أمانة العاصمة • وهذه المشرعة قريبة جدا من « القصر العباسى » أى انها قريبة جدا من المدرسة الشرابية • على ان الذى يؤيد هذا الرأى ويقويه ان المسافة بين باب « القصر العباسى » وبين نهر دجلة تبلغ نحو ثمانين مترا ، ولذلك فمن المحتمل جدا ان يكون فيها أو على مقربة منها « درب الملاحين » الذى بنيت المدرسة الشرابية قبالته أو على مقربة منه ••

٢ ـ افتتاح المدرسة الشرابية

ويحسن بنا بعد الذى ذكرناه عن هذه المدرسة ان نشير الى افتتاحها والى بعض اخبارها •

ذكر النعيمى[١] نقلا عن ابن كثير قال : « وقال ابن كثير فى سنة ثمان وعشرين وستمئة : وفيها تكامل بناء المدرسة الاقبالية التى بسوق العجم من بغداد ، المنسوبة الى اقبال الشرابى • وحضر بها الدرس • وكان يوما مشهودا • واجتمع فيها جميع المدرسين ، والمعيدين ببغداد • وعمل بصحنها قباب الحلوى ، فحمل منها الى جميع المدارس والرُبط • ورتب فيها خمسة وعشرين فقيها لهم الجوامك الدارّة فى كل شهر • والطعام فى كل يوم • والحلوى فى أوقات المواسم • والفواكه فى زمانها • وخلع على المدرسين ، والمعيدين ، والفقهاء يومئذ • وكان وقفا حسنا ، تقبل الله منه » • وذكر مؤلف الحوادث الجامعة قال : « وفى شوال [سنة ٦٢٨هـ] تكامل بناء المدرسة التى انشأها شرف‌الدين اقبال الشرابى بسوق العجم ، بالشارع

---

(١) الدارس فى تاريخ المدارس ص ١٥٩ ـ ١٦٠ •

الاعظم ، بالقرب من عقد سور سوق السلطان مقابل درب الملاحين ، وكان المتولى لبنائها شمس الدين ابو الازهر أحمد ابن الناقد[1] ، وكيل الخليفة المستنصر بالله • وشرط الواقف له النظر فيها وفى اوقافها ثم بعده الى من يلى وكالة الخلافة ، وفتحت فى آخر شوال ورتب بها الشيخ تاج الدين محمد ابن الحسن الارموى مدرسا وخلع عليه ، وعلى الفقهاء ، والمعيد وجميع الحاشية ، ومن تولى عمارتها • وحضر جميع المدرسين ، والفقهاء على اختلاف المذاهب • وقاضى القضاة عبدالرحمن بن مقبل ، فجلس فى صدر الايوان • وجلس فى طرفى الايوان محى الدين محمد بن فضلان • وعماد الدين ابو صالح نصر بن عبدالرزاق بن عبدالقادر فكلاهما كان قاضى قضاة • وعمل من أنواع الاطعمة ، والحلواء ، ما تعبى فى صحنها قبابا ، وحمل من ذلك الى جميع المدارس والاربطة ، وقرئت الختمة ، وتكلم الشيخ محمد الواعظ ، ثم جلس المدرس بعده ، وذكر دروسا أربعة فأعرب عن غزارة فضله ، وتوسع علمه »[2] • وجاء فى الحوادث الجامعة أيضا ان الشيخ تاج الدين محمد ابن الحسن الارموى مدرس الشرفية المذكور توفى فى سنة ٦٥٣هـ وقد جاوز عمره ثمانين سنة قال : « وكان وحيد عصره فضلا ، وفريد داره علما • قرأ على الامام فخر الدين الرازى وصحبه ، وكان متواضعا لمن دونه ، مترفعا على من فوقه ، وكان عريض النعمة ، واسع الجاه بوجود الشرابى ، يستكثر من المماليك الحسان الترك وغيرهم • وكان اهل بغداد يتحدثون فيه ، فلا يعبأ بحديثهم ولا يكترث لذلك • حكى عنه بعض أصحابه قال : قلت له يوما : ان الناس قد

---

(١) نصير الدين ابو الازهر من كبار رجال العرب العلويين ، ولى وكالة ام الخليفة الناصر فى وقوفها ، فلما ولى الظاهر وكله لاولاده العشرة • فلما ولى المستنصر احضره يوم مبايعته ، واشهد له بوكالاته ، واضيفت له استاذية الدار سنة ٦٢٧هـ ثم نقل الى الوزارة سنة ٦٢٩هـ والوكالة باقية عليه • مولده فى شوال سنة ٥٧١هـ ووفاته ٦ شهر ربيع الاول سنة ٦٤٣هـ ودفن فى الكاظمية •

(٢) الحوادث الجامعة ص ٢٤ ـ ٢٥ • وراجع تاريخ علماء المستنصرية ١١٢ ، ١١٦ ، ٣٠ عن ابن مقبل وابن فضلان وابى صالح الجيلى •

اكثروا القول فى هؤلاء المماليك فقال : الست تعلم ان الانسان يحب ان يسكن أحسن الدور ، ويلبس أفخر الثياب ، ويأكل أطيب المآكل ، ويركب أجمل المراكب ؟ قلت بلى • قال : فلم لا يكون من يلى خدمتى به ، ويقرب منه على احسن صورة ! وان شئت أريتك ما بدارى من الجوارى الحسان ، فامسكت عنه • وعرفت انه كذا ينبغى للعاقل ان يفعل • وقيل له يوما : ان جاريتك فلانة تحب مملوكك فلانا ، وكانا فى غاية الحسن ، والجمال فقال : الآن ثبت عندى صحة عقلها • ودفن فى قبة بنيت له فى الشونيزى »[1] •

الفصل الثالث

اقبال الشرابى مؤسس الشرابية

جاء فى الحوادث الجامعة انه شرف الدين أبو الفضائل اقبال الشرابى[2] وكان اولا لعزالدين نجاح الشرابى • وانتقل الى زوجته بعد وفاته فلما افضت الخلافة الى الظاهر حملته اليه فقبله ، فأبعده عنه رشيق ، وانفذه الى ولده المستنصر فلما دخل عليه قال له : ما اسمك ؟ فقال : اقبال • فسر بذلك واستبشر ، وتفاءل به فلما افضت الخلافة اليه ، قربه ، وقبض على رشيق وحبسه ، وجعل اقبالاً شرابياً ، ثم جعله سرخيل العسكر ، فلما توفي زعيم اِربل سار بالعسكر اليها ، وأخذها وعاد مظفراً فلما افضت الخلافة الى المستعصم زادت منزلته عنده ، وقرب من قلبه ، فلما وصلت عساكر المغول سنة خمس وثلاثين [وستمئة] خرج الى لقائهم ، وظهر من حسن تدبيره ما اوجب زيادة الانعام عليه • وكان حال الملك منتظما بصائب رأيه فلما توفي اختلت الاحوال بعده »[3] •

---

(١) ص ٣١٠ ـ ٣١١ • والشونيزى هى مقبرة الجنيد البغدادى بجانب الكرخ •

(٢) ص ٧٦ و ٣٠٨ •

(٣) الحوادث الجامعة ص ٣٠٩ •

ولما غيرت ثياب العزاء بعد الحداد على المستنصر وتولى ابنه المستعصم الخلافة خلع على شرف‌الدين اقبال الشرابى فى حضرة الخليفة المستعصم ، وقلده سيفين بيده • وقُدم له مركوب من خيل الخليفة فى البستان ، فخرج راكبا وبين يديه الخدم بسيوف مشهورة ، فخدمه الامراء بين يدى مركوبه • فخرج من باب النوبى فلما انتهى الى باب البدرية استأذنه علاءالدين الطبرسى الدويدار ، وكان راكبا فى آخر الامراء فى العـود الى داره فأذن له ، وللامراء فنزل علاءالدين وعضده ، وقبل يده وعاد[1] •

وجاء فى الحوادث الجامعة انه بنى فى الجانب الشرقى من واسط مدرسة للشافعية ، فتحت فى سابع عشر شعبان من سنة ٦٣٢هـ بناها على دجلة مجاورة لجامع كان داثراً فأمر بتجديد عمارته ، ورتب به مدرسا العدل أحمد بن نجا الواسطى • ورتب بها معيدان ، واثنان وعشرون فقيها وخلع على الجميع ، وعلى من تولى عمارتهـــا من النواب ، والصناع ، والحاشية الذين رتبوا لخدمتها • وعمل فيها دعوة حسنة حضرها صاحب الديوان « ابن الدباهى » والناظر بواسط ، والقاضى ، والنقيبان ، والقراء ، والشعراء • وكان المتولى لعمارتها والذى جعل النظر اليه والى عقبه فى وقفها ابو حفص عمر بن ابى بكر بن اسحق الدورقى[2] •

وذكر قطب‌الدين الحنفى فى كتابه الاعلام باعلام بيت الله الحرام[3] انه « بنى بمكة مدرسة على يمين الداخل الى المسجد الحرام من باب السلام ووقف فيها كتبا كثيرة فى سنة ٦٤١هـ ويظهر ان هذه الـكتب كما يقول قطب‌الدين « ذهبت شذر مذر والمدرسة باقية الى الآن وقد صارت رباطا وفيه محل التدريس » •

وجاء فى الحوادث الجامعة[4] انه جدد بمكة الرباط الذى اشتهر ذكره

---

(١) الحوادث الجامعة ١٦٧ ـ ١٦٨ •
(٢) الحوادث الجامعة ٧٧ •
(٣) ص ٨٢ •
(٤) ٣٠٨ ـ ٣٠٩ •

فى الدنيا ، وعين عرفة التى فى الموقف ، وأجرى ماءها لانتفاع الحاج به واوقف على ذلك الوقوف السنية • قال : وكان كثير الصدقات ، والمواصلات • كان فى خدمة الخليفة بالحلة فمرض بها وحمل الى بغداد فى شُبّارة ، وهو مثقل ، فوصل فى سابع عشرى شوال [سنة ٦٥٣هـ] وتوفي فى ثامن عشريه • وصُلي عليه فى جامع القصر ، ودفن فى تربة ام الخليفة المستعصم بباب القبة على يمين الداخل • وجلس الوزير ، وارباب المناصب فى العزاء بالمدرسة المستنصرية • وكان شيخا شجاعا كريما ، شريف النفس ، عالى الهمة[1] •

---

(١) راجع ص : ٩٨ و٩٩ و١٠٩ و١١٠ من الكتاب المظنون انه الحوادث الجامعة عن اعماله العسكرية وجهوده فى صد المغول عن اربل ، وبغداد •

المراجـــع

١ ـ الدارس فى تاريخ المدارس للنعيمى ·
٢ ـ شذرات الذهب لابن عبدالحى الحنبلى ·
٣ ـ البداية والنهاية لابن كثير ·
٤ ـ الحوادث الجامعة المنسوب لابن الفوطى · تحقيق الدكتور مصطفى جواد ·
٥ ـ الفخرى لابن الطقطقى ·
٦ ـ الاعلام باعلام بيت الله الحرام لقطب‌الدين الحنفى ·
٧ ـ تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ج ١
٨ ـ معجم البلدان لياقوت الحموى
٩ ـ مراصد الاطلاع لصفى‌الدين عبدالمؤمن
١٠ ـ مروج الذهب للمسعودى
١١ ـ مرآة الزمان لسبط ابن الجوزى ·
١٢ ـ رحلة ابن جبير ·
١٣ ـ بقايا القصر العباسى · لمديرية الآثار القديمة ·
١٤ ـ سامراء · لمديرية الآثار القديمة ·
١٥ ـ تكملة الاكمال للصابونى
١٦ ـ الجامع المختصر لابن الساعى
} وهما من تحقيق الدكتور مصطفى جواد

١٧ ـ تاريخ علماء المستنصرية · ناجى معروف
١٨ ـ النصوص الـكتابية على جدران المستنصرية والمرجانية ·
١٩ ـ مجلة سومر ·
٢٠ ـ مجلة التفيض ·
٢١ ـ مباحث عراقية ليعقوب سركيس ·
٢٢ ـ شرح نهج البلاغة لابن ابى الحديد ·
٢٣ ـ ابن الفوطى : للشبيبى ·

24 — Mission en Mesopotamie. Louis Masignon. VII.

25 — L'architecture Musulmane du XIIIe Siécle en Iraq. Paris 1913.